نظرة في تاريخ الرواية السورية

د. أدهم مسعود القاق

دكتوراه اللغة العربية وآدابها

هناك من أكّد أن فرنسيس مراش (١٨٣٦- ١٨٧٣) رائد الرواية السورية؛ إذ كان قد أصدر روايته "غابة الحق في تفصيل الأخلاق الفاضلة وأضدادها" عام ١٨٦٥م، المفتقرة لأسس مقومات الرواية الفنية، وكتب "مرآة الحسناء"، وقبلها حكاية "در الصُّدَف في غرائب الصَّدَف" ١٨٧٢م، متأثّرًا بحكايات ألف ليلة وليلة، على المستوى السرديّ منذ ١٨٧٢م، وضمّنها إعجابه بالثورة الفرنسية وباريس التي زارها، وكتب عنها في "رحلتي إلى باريس"، فأظهر افتتانه بالثقافة الأوروبية، رافضًا الجهل المنتشر في سوريا حينذاك، ثم ذكرت رواية "أمراض العصر الجديد" لرفيق رزق سلوم (١٨٩١-١٩١٦) التي أصدرها ١٩٠٩م وعدّت أكثر فنيّة من روايتي مراش، كما أنّ موضوعها الرئيس هو نقد العادات والتّقاليد البالية عبر تصويره شخصيات تنامى فعلها مع الأحداث الدرامية التي عالجها في متن روايته، وقد أُعدِم رفيق رزق في دمشق بأمر من الحاكم العسكري العثماني جمال باشا يوم ٦ أيار ١٩١٦م.

ولا بد من ذكر النشاط الحكائي التمثيلي في سوريا عن طريق حرفة الحَكَواتي الذي كان يتصدر المقهي الشعبي، ويروي للحضور قصصًا شعبيًّا كحكاية الزير سالم وعنترة والظاهر بيبرس... إلخ، وقد تميّزت مدينة دمشق بهذه الحرفة.

وهناك من يعدّ رواية شكيب الجابري (١٩١٢ - ١٩٩٦) "نَهَم" ١٩٣٧م رومانسية الطابع التي صدرت إبان الحرب العالمية الثانية، بعد معاهدة ١٩٣٦ السورية – الفرنسية، هي الرواية الأولى؛ لما امتلكه الجابري من أدوات حديثة في السرد وتقنيات فنية ولغة روائية متماسكة، وعلى الرغم من تزامن صدورها مع أحداث خطيرة في تاريخ سوريا؛ إذ حدث سلخ لواء إسكندرون، وقامت ثورة عزالدين القسَّام السوري في فلسطين، إلّا أنّ أحداثها وقعت في ألمانيا، وشخصياتها ألمانية؛ نتيجة خوف مؤلفها من شيوخ الدين المتعصبين من جهة، وانبهاره بالحضارة الأوروبية من جهة أخرى، وقد كتب الجابري بعد "نهم" رواية "قدر يلهو" ١٩٣٩م، و"قوس قزح" ١٩٤٦م، و"وداعًا يا أفاميا" ١٩٦٠م.

وإذا كان النشاط الأدبي قد خفت في فترة الحرب العالمية الثانية؛ إلا أنّه نشط فيما بعد على صعد أجناسيّة الأدب الراقي كلها: من مسرح، وشعر، وقصة، ورواية، وسرعان ما

تعددت أساليب الكتابة، وتنوعت التقنيات في الأجناس الأدبية الراقية، لا سيّما في السرد الروائي الذي تنوع في موضوعاته، فأنتجت الروايات ذات الطابع الرومانسي حتّى استقلت سوريا، فسيطرت المدرسة الواقعية، وتنوعت موضوعات الرواية السورية التاريخية والاجتماعية، والفلسفية؛ تأثّرًا بالنقد والإبداع الروائي المصري.

وقد قسَّم الناقد حسام الخطيب (١٩٣٢ -) تطور الأدب السوري في أواخر ستينيات القرن العشرين إلى مراحل ثلاث: مرحلة الطفولة (١٩٣٧ – ١٩٤٩)، ومرحلة الحراك الأدبي (١٩٥٠-١٩٥٨) مرحلة الحكم الليبرالي وازدهار الصحافة ونمو التعليم، ومرحلة النهوض (١٩٥٩ – ١٩٦٧)، واعتبر أنّ بداية تكوّن سمات الرواية العربية السورية في ستينيات القرن الماضي، وواضح أنّه لم يقصد في تقسيماته لتطور الأدب السوري على أساس جيليّ، بل قصد وجود جماعات، ارتبط ظهورها بنشاط اجتماعي معيّن لتحقيق مطالب محددة للمجتمع، أو بانتماء مجموعة أفراد لمذهب فنّي أو مدرسة أو إيديولوجيا أو حزب شموليّ، والتزامهم بقواعد مشتركة فيما بينهم، وهذا ما حدث – مثلًا – مع رواية حنا مينة "المصابيح الزرق" ١٩٥٤م، إذ رافق صدورها "ضجيج ثقافيّ قادته الأصوات اليسارية" في خمسينيات القرن الماضي، مجترة تبشيرها بظهور المذهب الواقعي.

إنّ ما ورد عند الناقد حسام الخطيب، ارتبط بعوامل السياسة وشروطها أساسًا ومعيارًا في تقسيمه لمراحل تطور الرواية السورية مهملًا عوامل أخرى، وهذا لا يعطينا تصورًا واضحًا لتطور الرواية السورية وأجيالها، وإذا أردنا تصنيفها وفق مفهوم الأجيال الأدبية لا بدّ من النظر إلى النتاج الروائي بناء على سمات كلّ جيل وفق تواريخ الميلاد المتقاربة، أو على أساس من أنساق الثقافة والتربية المهيمنة، أو دراسة انعكاس الثورات والحروب والصراعات والكوارث على أبناء الجيل الواحد، أو بناء على التطورات الحضارية الطارئة في لحظات تاريخية محددة، وبتضافر هذه الأسس وتكاملها تُكشف معالم أكثر وضوحًا لتحديد سمات جيل أدبي، ومعرفة طبيعة نتاجه، ورصد محطات تطور ذلك النتاج وتوصيف ملامحه، وغالبًا ما ترتبط التغيرات في حركة التاريخ أو الأدب بأسماء رواد في أثناء عملية تشكيل وعي جديد مغاير، رواد يُمنحون طاقات استشرافية، لاكتشاف صيرورة جديدة بعد تغيرات متلاحقة كَمًّا على شكل سيرورات متتابعة، فيقدّمون رؤية مغايرة للسائد، ويوظّفون مصطلحات وشعارات جديدة، تصبح هي الرائجة بين أبناء جيلهم،

إضافة إلى أن الاصطفاف الجيلي يوضح طبيعة الأحداث التي تسم جيلًا معينًا ببصماتها الجمعِيَّة، فالحربان العالميتان وحرب الجزائر وثورة ١٩٦٨ شكلت أدلة على فهم التغيرات التي طرأت على الأدب الفرنسي، ونكسة حزيران/ يونية ١٩٦٧م دلّت على التغيرات التي طرأت على الأدب العربي، ولكنّ السؤال: هل ما ذُكِر يكفي لتحديد صفات جيل أدبيّ؟

هناك مصطلح آخر هو الموجة الأدبية، الذي يشير إلى ملامح وسمات أدبية متميزة، تظهر على نتاج أدباء متشابهين في رؤاهم في أثناء بضع سنوات، وربما تكون هذه الموجات متنوعة، وتعد ملمَحًا من ملامح الجيل الأدبي، أو موجات في جيلٍ متعدِّد المَناحي والتوجُّهات.

إنّ الموجات الأدبيّة المتعاقبة، هي ما يطلق على ما أنتجه الروائيون السوريون مكونين جيلًا أدبيًّا واحدًا منذ الرواية الحديثة الأولى عام ١٩٣٧م حتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين، حيث كانت حصيلة موجات كتابة الرواية السورية بين (١٨٧٠ – ١٩٦٧) نحو ٤٠ رواية، وممن كتبوا إلى جانب الجابري، معروف أرناؤوط الذي كتب روايات تاريخية، وحصيلة عدد الروايات السورية بين (١٩٧٠ – ١٩٨٩) وهي الموجة الثانية تجاوزت ١٩٠ رواية، ومن الممكن أن نطلق على تلك الموجات من كتابة الرواية جيل ما قبل الألفية؛ إذ اتسم المشتغلون في الكيان الثقافي، ومنهم الروائيون، بتماهيهم مع الغرب، مكونين تيارات حداثوية مشوهة، لم يستطع أربابها التأثير بثقافة المجتمع وقيمه القروسطية، أو تيارات ماضوية سلفية رمت دعاتها خارج التاريخ، إلى أن حصل النكوص الذي بدأت ملامحه تظهر منذ النصف الثاني من سبعينيات القرن المنصرم، ولعلّ تقسيم د. حسام الخطيب لجيل الرواية العربية حتى ١٩٦٧م، قصد به موجات أدبية سارت فيها الرواية السورية، وليس أجيالًا، لأنّ شرط تكوّن الجيل الأدبي هو الخروج من منظومة معرفية وقيمية وجمالية ماضية إلى منظومة مستحدثة.